القيم الأخلاقية ودورها في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية

د . مقبولة مسعود العوامي*

مقدمة:

لكل مجتمع من المجتمعات قيم ومبادئ أخلاقية هي بمثابة الجذور المتأصلة لسير منظومة المجتمع نحو التقدم والرقي، فالأخلاق والقيم تمثل الجانب الروحي والجوهر والأساس الذي تقوم عليه أي حضارة، وفي ذات الوقت تتضمن سر بقاءها وصمودها عبر التاريخ والأجيال، وهو الجانب الذي إذا اختفى يوماً فانه يزيل الدفْ المعنوي للإنسان، الذي هو روح الحياة والوجود .

إن ما يعانيه العالم اليوم من تدهور حضاري هو نتيجة لبعده عن القيم الأخلاقية، فالجفاء والإهدار للقيم يعتبر من أكثر العوامل التي تهدد الحضارة، ونتيجة لهذا التخبط الأخلاقي والبعد عن القيم الأخلاقية ظهرت في العصر المعاصر الكثير من المشكلات التي واجهت المجتمعات الإنسانية بصفة عامة والمجتمعات العربية، والإسلامية بصفة خاصة . هذه المشكلات بدأت في التزايد ،والتفاعل الأمر الذي جعل البعض يرى فيها مصدر تهديد حقيقي لحياة الإنسان الذي هو أثمن ما في الوجود .

فحينما يفقد الإنسان الموروث الأخلاقي – **الذي له جذور تمتد في أعماق تاريخ مجتمعه** – تحل محله قيم جديدة تطرح نفسها في خضم هذه الحيرة والقلق، و تتجه نحو التغيير السلبي، وبالتالي يتبعها تغير غير حضاري في سلوك و تصرفات الإنسان ، وهو أمر ينجم عنه تدهور المجتمع وعدم تحضره وربما لجموده لزمن ليس بقليل ، في الوقت الذي نجد فيه عجلة التطور في الكثير من المجتمعات الأخرى آخذة في الدوران والتراكم وهو أمر يجعل المجهود المطلوب من المجتمعات التي بها خلل في القيم يفوق بكثير ما هو مطلوب من غيرها ، لأن الزمن لن يتوقف حتى يصل من تخلف عن ركب التحضر بالمجتمعات المتحضرة ، فالزمن أو الوقت ((نهر صامت حتى أننا ننساه أحيانا ،وفي ساعات الغفلة أو نشوة الحظ ، تنسى الحضارات أحيانا قيمته التي لا تعوض))[1]. فهو مستمر في الجريان ، والمجتمعات التي لا تقدر قيمة الزمن تحتاج إلى توقيت دقيق، وخطوات واسعة لكي تعوض ما فاتها حتى لا يضيع الوقت هباء.

* كلية الآداب - قسم الفلسفة

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي ،وعبد الصبور شاهين،ط1،مكتبة دار العروبة،القاهرة،سنة1957م،ص133

وفي هذا البحث سوف أتطرق إلى القيم الأخلاقية، و دورها في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية لما لأهمية الفكر الأخلاقي من اتصال بالحياة الاجتماعية اليومية، ولما للأخلاق من قيمة ومنهج تربوي .

يقول **أفلاطون Platon (427 ق م 347 ق م)** : ((إن الأخلاق هي مربية الإنسانية فمهمتها أن توقظ الإحساس بالقيم لدى الإنسان))[1] . لذلك نجد جُل الفلاسفة ، والمفكرين قد أعطوا القيم، والأخلاق الدور الهام في البناء الحضاري .

ولتبيان أهمية الجوانب المعنوية في الحضارة سنحاول الإجابة عن السؤال الاتي :

هل الحضارة تقوم على الجوانب المعنوية فقط أم الجوانب المادية أم على كليهما ؟ بمعنى آخر هل يجب أن يكون هناك جانب أقوى وأعظم من الجانب الأخر ؟

-أهمية الأخلاق ودورها وموقعها في الحياة الإنسانية :

أن حكمة الخالق المدبر توجب وجود هدف سام ومنظور راق للخلق بصورة عامة وللإنسان بصورة خاصة لأنه تعالى منزه عن اللعب واللهو والعبث (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ) الأنبياء/ 16. فالخالق الحكيم لم يدع مخلوقه الضعيف يتيه في عالم مجهول مظلم بل هداه النجدين وأوضح له السبيل وبين له الرشد من الغي عن طريق العقل والفطرة، وعن طريق الوحي والرسل، ومن أهم صفات الدين الإسلامي ارتكازه على قاعدة أخلاقية تشمل كل تصرفات الإنسان . يقول الله عز وجل: (**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)الرعد 19-25** ((إن الإشارة الأخلاقية واضحة في الآيات، سواء الإشارة المجملة في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ) أو فيما جاء تفصيلا من الصبر ابتغاء وجه الله، وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة ودرء السيئة بالحسنة مع الله والخوف من سوء الحساب . ومعرض الحديث هو الإيمان

[1] عبد الوهاب جعفر، مذكرة في فلسفة الأخلاق،بدون طبعة، كلية الآداب جامعة الإسكندرية،سنة1991،ص5

بأن ما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق. ومن ثم يبدو واضحاً أن الالتزام بتلك الأخلاقيات المعروضة سواء منها ما أجمل وما فصل، هو مقتضى ذلك الإيمان بأن ما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق . كما أن هناك لفظة في الآيات تعطي دلالة خاصة في هذا المجال...وهي أن صفة من يعمل بما أُنزل على الرسول هي من يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. وفي هذا إشارة إلى أمرين : الأول أن الإيمان هو مقتضى ميثاق الفطرة، والأمر الثاني أن الأخلاقيات المعروضة ،سواء منها ما أُجمل أ وما فُصل، هي في حقيقتها ميثاق مع الله يوفي به المؤمنون وينقضه غير المؤمنين، وتلك هي الحقيقة في أمر الأخلاق .

إن الإنسان كائن أخلاقي بطبعه، أي أن أعماله تحمل معها قيمة خلقية، بصرف النظر عن كون هذه القيمة في اعتبار إنسان بعينه صحيحة أم خاطئة، فأعمال الإنسان تستمد قيمة خلقية من كون أن له طريقين اثنين لا طريقا واحدا-**غريزياً**- كالحيوان، أو عقليا كالإنسان ، وله القدرة على معرفة الطريقين واختيار أحدهما:(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)البلد**10**.في جميع أحواله هو يختار إما طريق الخير وإما طريق الشر**))**.[1]

يتضح مما سلف ذكره أن دور الأخلاق وموقعها في الحياة الإنسانية وفقا للتصور الإسلامي غير منفصل عن واقع الإنسان مبدأ وغاية وهدفاً. وكما أن الحقيقة الإنسانية واحدة، والهدف المرسوم لهذا الخلق ثابت وسام، فإن الأخلاق أيضا ليست في واقعها إلا حقيقة واحدة ثابتة سامية **:** وأن الأخلاق الفاضلة هي التي تحقق في الإنسان معاني الإنسانية الرفيعة وتحيطه بهالة وضاءة من الجمال والكمال وشرف النفس والضمير وسمو العزة والكرامة . على هذا فان اثر الأخلاق ليس مقصورا على الأفراد فحسب بل يسرى على الأمم والشعوب ، حيث تعكس الأخلاق صفاتها وخصائصها ، ومبلغ رقيها أو تخلفها في مضمار الأمم . وقد نجد في تاريخ الأمم الكثير من العبر التي تدل على أن فساد الأخلاق كان معولاً هداماً في هدم صرح الحضارات وانهياها**:**[2]. الحقيقة أن الحياة الفردية للإنسان لا قيمة لها بدون الأخلاق، والإنسان لا يستطيع أن يصل إلى بر الأمان بدون القيم والأخلاق . وبما أن الفرد لا يستطيع أن يعيش إلا في جماعة ، فإن الأهم من ذلك هو الحياة الاجتماعية للبشر، فما لم يتمسك أفراد المجتمع بالأخلاق فستكون نهاية المجتمع أليمة وموحشة؛ فالعمل بالقوانين على سبيل المثال بدون وجود قواعد متماسكة من القيم الأخلاقية لدى الأفراد غير ممكن، لأنه إذا لم يتوفر الداعي الذاتي للإنسان ، فالسعي الظاهري لن يجدي نفعاً . وفي ذلك يقول الله عز وجل **(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم**

[1] محمد قطب، واقعنا المعاصر، ط 1، دار الشروق، القاهرة 1997،ص68-69.
[2] مرتضي مطهري، فلسفة الأخلاق، ترجمة حسن على الهاشمي،ط1،دار الولاء للطباعة والنشر،2009،ص27.

بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)الأعراف/أية96 . هذه الآية الكريمة توضح كيف أن الكثير من الأمم لديها إمكانيات مادية كبيرة، ولكن بسبب إهمالهم للقيم وانحطاطهم الأخلاقي ستتعرض تلك الإمكانيات للتدهور والانهيار، و بعكس ذلك لو اقترنت تلك الإمكانيات بالإيمان والأخلاق والقيم الإنسانية، فإنها ستجلب السعادة والعمران للمجتمع البشري ، فالخلق السامي الإنساني لا يقتصر تأثيره على السلوك المعنوي والأخوي للإنسان فحسب، بل له الأثر الكبير في الحياة المادية والدنيوية للبشر. وعليه لا ينبغي أن نتصور أن المسائل الأخلاقية، منحصرة بالفرد وحده على حساب الحياة البشرية، بل العكس صحيح، فالأخلاق على علاقة قوية ووطيدة بالحياة الاجتماعية، وأي تحول اجتماعي في واقع الحياة البشرية، لا يمكن أن يحصل إلا على أساس التحول الأخلاقي. إذا فالأخلاق الحسنة هي معني الحياة وسر تماسكها وتآزرها وانسجامها، بها تصبح الحياة مستقرة، وحينما تكون الأخلاق السائدة في المجتمع هي الأخلاق الحسنة، يكون هناك انسجام بين المجتمع وأبنائه، و تعم المجتمع الألفة والسلام، فلا خوف ولا اضطراب ولا بؤس ولا شقاء ولا طغيان، ولا نهب، ولا إرهاب، بل يعم المجتمع الصدق، والمحبة، والعدل، والإخلاص، ومن ثم العمل الجاد ، وحينما تتوافر هذه القيم الحميدة ، ستقام حضارة حقيقية. فالأخلاق هي مصدر الأنس في أعماق الإنسانية، وهى الغاية التي أرادها الله لعباده، لكي تتم عمارة الأرض، التي لا تتحقق إلا بتكامل الأخلاق في المجتمع .

-العاملان المكونان للحضارة:

إن أساس قيام أي حضارة يستند على عاملين هما العامل المادي، والعامل المعنوي، ويؤكد ذلك الكثير من التعريفات التي وضعها معظم المفكرين وعلماء الاجتماع، والحضارة، فمنهم من يرى الحضارة عقيدة، ومنهم من يراها خلقاً وسلوكاً، ومنهم من يعرفها بأنها ازدهار اقتصادي وسبق عمراني وتقدم صناعي ونظام اجتماعي وتشريعي، ومنهم من أعطاها- الحضارة- دلالة تقييمه أخلاقية ضيقة. ونجد ذلك على الأخص عند **(شبنجلر)** * فيقول: إن هناك((طورين متناقضين في الحضارة: يتميز الطور الأول **Culture** بالرقي الأخلاقي والروحي بشكل عام، وهو طور الفتوة والازدهار والإنتاج الروحي، بينما يتميز الطور الثاني

* أوزفالد شبنجلر (Oswald Spengler) فيلسوف ألماني، ولد عام 1880 في مدينة بلاكينبرج، وتوفي عام 1936 في مدينة ميونخ. ناقش رسالة الدكتوراه في جامعة هال (Hall) عام 1904 عن هيراقليطس. أشتهر كمنظر في علم التاريخ، مؤكداً على التطور البيولوجي الميكانيكي للتاريخ، من خلال دورة تاريخية بين عدة مراحل للحضارة: نمو (Croissance) نضج (Maturité) ثم انحلال (Decadence). من أشهر كتاباته (انحلال الغرب) عام 1916-1920. و(البروسيانية والاشتراكية (Prussianisme et Socialisme) و(الإنسان والصناعة) (L`Homme et la Technique) 1933 و(البناء الجديد للرايخ الألماني) و(عمر الحضارة الأمريكية) 1936. أكد شبنجلر في مؤلفاته على الدور السياسي العالمي المهم لألمانيا في حركة التاريخ، مشيداً بإيديولوجية الاشتراكية الوطنية، ما جعل كتبه أدوات فكرية يستخدمها دعاة هذه الاشتراكية بالرغم من رفضه الاعتراف بهتلر باعتباره البطل الذي تحتاجه الاشتراكية الألمانية.
المرجع: Encyclopaedia Universalis, Tom.17, France, S.A., 1985.

Civilization باضمحلال الحياة الروحية والأخلاقية؛ فهو طور الهرم والركود))[1].

فالتمييز بين **Culture و Civilization** لم يقم على أساس التفريق بين نمطين من التقدم الحضاري، أحدهما مادي، والآخر معنوي، ولكن على أساس التمييز بين طورين: أحدهما يتميز بالرقي الروحي، والآخر يتميز بالانحلال الروح والأخلاقي. وقد علق ألبرت **اشفايتسر*** على هذا التمييز الذي أخذ ينتشر في اللغات الغربية بأنه تمييز ((يهدف إلى جعل العالم يألف فكرة نوع من الحضارة لا أخلاقي، إلى جانب نوع أخلاقي فيها. وأنه ليس ثمة مبرر لغوي ولا أخلاقي لوضع تفرقة بين الكلمتين))[2]. ويتفق هذا المعنى السابق مع مفهوم **"لالاند"** للحضارة من حيث إنها ((مجموعة ظواهر اجتماعية مركبة، ذات طبيعة قابلة للتناقل، تتسم بسمة دينية، أخلاقية، جمالية، فنية، تقنية أو علمية، ومشتركة بين كل الأجزاء في مجتمع عريض أو عدة مجتمعات مترابطة))[3]. فالحضارة ليست هي التقدم التكنولوجي فحسب كما يعتقد البعض، وإنما هي ((الارتقاء العقلي والإيمان بالقيم الإنسانية لخير الإنسان وسعادته. والحضارة - بلفظ آخر- هي المدنية... وتعني التمدن والتحضر))[4]. وطبقا لهذا المعنى السابق فالحضارة مرتبطة بالاستقرار؛ هذا الاستقرار الذي يجعل الإنسان يجتمع في مجموعات إنسانية، لكل فرد فيه ميزة معينة، يبدع ويفكر ويخترع، مكونا من ذلك كله حضارته المادية والروحية، وذلك منذ أن بدأ الإنسان على الأرض من الحالة البدائية إلى الحالة المتطورة المتقدمة المعاصرة . لذا نجد الإنسان منذ أقدم العصور أنشأ حضارة، وما زالت حضارته قائمة إلى اليوم، وذلك لأن هدفه كان إسعاد نفسه، وإسعاد من حوله من البشر، لخير نفسه، ولخير غيره من الإنسانية .

كذلك نجد العالم **الإنجليزي تايلور) (E.B.Taylor) (1832-1917)** حينما يعرف الحضارة بقوله: ((هي ذلك الكل المعقد الذي يضم المعرفة والمعتقدات والفنون والآداب والقوانين والعادات ، وجميع القدرات والتقاليد الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في المجتمع))[5]

---

[1] قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، ط3،دار العلم للملاين ،بيروت،سنة1977 ، ص27.

* رجل لاهوت ومبشر وطبيب وجراح وموسيقي وفيلسوف وباحث في فلسفة الحضارة. ولد عام 1875 في إقليم الألزاس بفرنسا. اهتم بالحضارة وبحث في ماهيتها وطبيعتها وانحلالها وإعادة بنائها، كما ربط بين الحضارة والأخلاق، وذلك في كتابه (فلسفة الحضارة) الذي ينقسم إلى عدة أقسام، يبحث من خلالها في تاريخ الحضارة وعلاقتها بالقيم الأخلاقية لدى الإنسان، الذي اهتم بها منذ عام 1900، إلا أن اهتمامه الحقيقي بفلسفة الحضارة نما خلال 1914 وحتى 1917، حتى أتيحت له الفرصة في محاضرات ديل (في أكسفورد سنة 1923، التي من خلالها أوضح آراءه في فلسفة الحضارة. من مؤلفاته (كبار مفكري الهند) وكتابات عن الموسيقار باخ. حصل على جائزة نوبل للسلام في 1952. انظر Dictionnaire Le
Petit Robert, 2, Dictionnaire Universel des Noms Propres, redaction dirigee par Alain Rey, Paris, 1984.

[2] ألبرت ا شفايتسر: فلسفة الحضارة، ترجمة:عبد الرحمن بدوي، ب ط، مطبعة مصر،القاهرة، ب ت،ص36-37.

[3] A. Lalande, op.cit., pp.141-142

[4] New Junior Encyclopedia, London, 1973, v.4 p.119

[5] عفت الشرقاوي: فلسفة الحضارة الإسلامية، ط4، دار النهضة العربية، بيروت 1985 ، ص11.

فتعريفه للحضارة بأنها ذلك الكل المعقد، هو تأكيد على أنها لا تقوم على عنصر واحد فقط، أو بالأحرى جانب واحد فقط، بل هي عبارة عن عدة تركيبات متشابكة ومتداخلة من الجوانب المادية والمعنوية، يقوم الإنسان بتركيبها وترتيبها من خلال ما يبذله من جهد وعمل متواصل للوصول إلى المعارف التي تضم الفنون والآداب والقوانين بأنواعها والعادات والمعتقدات، فيصبح لديه بنيان كامل ومتشابك هو ما نطلق عليه الحضارة، التي لا تكون إلا من خلال جهد الإنسان بما يحمله من قيم أخلاقية، وعادات وتقاليد لها دور هام في الوصول إلى حياة أفضل.

ويرى **ول ديورانت*** الحضارة في مؤلفه الضخم **(قصة الحضارة)** أنها ((هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي بعناصر أربعة: 1) الموارد الاقتصادية. **2)** النظم السياسية. **3)** التقاليد الخلقية.**4)** متابعة العلوم والفنون. وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق))[1] ففي تعريف ول ديورانت للحضارة تأكيد بأنها الإنتاج الثقافي المحدد بأربعة عناصر، فتلك العناصر الأربعة لا توجد إلا مع الإنسان، فهو مبدعها وخالقها، سواء أكانت موارد اقتصادية، أم نظما سياسية...الخ، ونجد من خلال تعريفه قد أعطى التقاليد الخلقية دورا هاما، وجعلها عنصر هام وضروري من عناصر قيام الحضارة. أما الدكتور **أحمد شلبي** في موسوعة **(الحضارة الإسلامية)** فهو يؤكد على ضرورة العامل المادي والمعنوي للحضارة فيقول إنها: **((**الإنجازات التي تحقق للبشرية أو حققتها البشرية من خلق وسلوك ومعارف**))**[2] **.**

إذا فآراء هؤلاء المفكرين تبحث في داخل الإنسان، من حيث التفكير والسلوك والأخلاق، أي ينظر إلى الإنسان على أنه إنسان، وإلى الحضارة على أنها شيء من لوازم الإنسان، لأنه هو الذي يخلق تلك الحضارة، وذلك بما يحمله من مشاعر وفكر، فهو بما يحمله من تلك الصفات كان سبباً في عمارة هذا الكون، بما يحويه من إبداعات فنية ودينية وأخلاقية، وهناك مفكرين آخرون ينظرون إلى الحضارة على أنها تصورات ومفاهيم وقيم تصلح لقيادة الإنسانية، وسعادة البشرية، وتسمح لها بالنمو والترقي، فالذي يقود الإنسانية إلى الترقي هو سياج واق من القيم، ونور كاشف من التصورات والمبادئ الفاضلة، وقد يكون التقدم الصناعي والعمراني

---

* ول ديورانت (W. Durant) (ولد عام 1885) من أبوين كنديين في نورث آدمز يمساشوسن، سيد مؤرخي الحضارات في أمريكا. من المؤرخين الذين يذكرون أوروبا المعاصرة بالدين الثقافي العظيم الذي يدينون به للإسلام، منذ أن كان أجدادهم، في العصور الوسطى، يسافرون إلى حواضر الإسلام في إسبانيا العربية خاصة، ليتلقوا على أيدي معلميها من المسلمين الفنون والعلوم والفلسفة. جاهر في مقدمته للمجلد الأول من (قصة الحضارة) بأن علوم الغرب وآدابه وفلسفته تدين لتراث مصر وبلاد الشرق. له العديد من المؤلفات أشهرها موسوعته الحضارية (قصة الحضارة) إلى جانب كتب فلسفية، منها (مناهج الفلسفة). أنظر: توفيق الطويل، أسس الفلسفة، ص15.الحضارة) .

[1] ول ديورانت: قصة الحضارة، تعريب: زكي نجيب محمود، ط1، ج1، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ص2.

[2] أحمد شلبي: الحضارة الإسلامية، ط1، دار النهضة المصرية، القاهرة، ب ت، ص20.

أثـرا مـن آثـار حضـارة الإنسـان صـاحب القـيم. ففـي كـل حضـارة –فـي تقـديري- بـذرة بقـاء، هي الإرث الحضاري الذي تتركه وراءها، وهذا الإرث مشاع كالهواء. وتتمثل هذه البذرة في الإرادة الإنسانية، ومـا يملكـه الإنسـان مـن قـيم أخلاقيـة وعقيدة دينيـة، فحضـارة الإنسـان عريقـة فـي القـدم، وترجع إلى مئات الآلاف من السنين؛ تلك الحضارات الضـاربة فـي أعمـاق التـاريخ، كـان الفضـل فـي إيجادها للقيم الأخلاقية .

ونجـد جوسـتاف لوبـون* :(فـي **كتابـه روح الجماعـة)** يـرى إن الجانـب المـادي لا يكـون إلا إذا التزم الإنسان بالقيم المعنوية فيقول :**((**هي نضوج الآراء والمبادئ والمعتقدات وتغير مشاعر الإنسـان إلـى الأفضـل **))**.[1] إي أن الإنسـان بمـا يحمـل مـن قـيم وأخـلاق هـو الأسـاس، وأن كـل مظـاهر الحضـارة، مـن تقـدم عمرانـي وصـناعي وعلمـي، هـي أثـر مـن آثـار الحضـارة التـي خلقهـا وأبـدعها الإنسـان، صـاحب القـيم. و قـد أكـد (**مالـك بـن نبـي 1905م-1973م)** في كتابه (**آفاق جزائرية)** وفي الكثير من كتبه الحضارية على الجانب المعنوي للحضارة فيقول : **((**الحضـارة هـي مجمـوع الشـروط الأخلاقيـة والماديـة التـي تتـيح لمجتمـع معـين أن يقـدم لكـل فـرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية لـه فـي هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه **))**[2].

يتضـح لنـا مـن هـذا التعريـف تأكيـد مالـك بـن نبـي علـى أهميـة ودور الأخـلاق فـي المجتمـع، فهـو يـرى أن عناصـر الحضـارة لـن تجـدي منفـردة، إن لـم يكـن الجـامع المشـترك لهـا الأخـلاق بمعناهـا الواسـع. وهـذا مبـدأ عـام وأساسـي، وفقدانـه يفقـد العناصـر الثلاثـة عنـده وهـي، **(الإنسان +التراب+ الوقت)** فعاليتها الحضارية، لأن الأخلاق هي التي تعطي قدرات التحضر شكلها ورونقهـا وكيفيتهـا، وبـذلك يتحقـق الخـلاص مـن الهيمنـة التـي تلغـي التحضـر. فمـع أهميـة العلـوم، علـى اخـتلاف وتنـوع مجالاتهـا، مـن علـوم إنسـانية إلـى طبيعيـة وسـواها، إلا أن تلازمهـا مـع الأخـلاق هـو الـذي يجعـل منهـا رسـالة حضـارية لهـا صـفة العالميـة. فـإذا كانـت الحضـارة، حسـب التعريـف السـابق لمالـك بـن نبـي، هـي مجمـوع الشـروط الأخلاقيـة، فهذه الشروط ذات أهمية كبرى في خلق وإيجاد الحضارة الإنسانية، فهي نابعة من الإنسان لذلك عُـرف الإنسـان بأنـه الكـائن الأخلاقـي، والإنسـان بمـا يمتلـك مـن قـدرة عقليـة مسـتنيرة،

* جوستاف لوبون (Gustave Le Bon) طبيب وعالم اجتماع فرنسي، ولد في مدينة توجينت بورترو عام 1841، وتوفي في باريس عام 1931. له الكثير من المؤلفات منها: (حضارة العرب) 1884، و(حضارة الهند) 1887 و(القوانين النفسية لتطور الشعوب) 1894 و(علم نفس العوام) 1895 و(روح الجماعة) انظر Le Petit Robert, 2

[1] جوستاف لوبون: روح الجماعة، ترجمة: عادل زعيتر، ب ط، دار المعرفة، مصر، ب ت، ص17.
[2] مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ب ط، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ب ت، ص38.

ذات مقومات أخلاقية ودينية، وقدراً كبيراً من التربية لضميره، يحب كل ما حوله من جمال، ويحاول أن يغير كل ما هو قبيح، وأقصد بالقبح هنا ما يصنعه الإنسان من شرور، كصناعة أسلحة الدمار، وسيطرة القوى العظمى وهيمنتها على الغير، ولا أقصد بالقبح المفهوم الجمالي للقبح، فإذا استطاع الإنسان أن يغير هذا القبح الموجود داخله، من شرور، والموجود في هذا الكون، استطاع أن يحافظ على حضارته التي صنعها بنفسه، ويعمل على رقيها إلى الأفضل باستمرار، وذلك لأن الحضارة ما هي إلا ((ظاهرة روحية لجماعة من الناس، لها تصور واحد عن العالم، وتتبلور وحدة تصورهم في مظاهر حضارية من فن ودين وفلسفة وسياسة وعلم))[1].مما سبق يتضح لنا إن الحضارة لا تكون إلا من خلال تمسك الإنسان بالقيم والدين فهما أساس قوي، بل يعدان من أهم الأسس في نشوء الحضارة واستمرارها، وإذا كانت الحضارة تتوقف في المقام الأول على الإنسان، وكان الإنسان مكلفاً ومسئولا، فإن الحضارة تعني التزاماً أخلاقياً؛ فالقيم والأخلاق والعقيدة الخلاقة والخصائص الإنسانية العليا التي ينفرد بها الإنسان عن الحيوان، تكون هي الأساس في توجيهه نحو التقدم .

على هذا،((فسيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفي وحدها لبناء الحضارة، بل لابد أن ينضم إلى ذلك أيضاً سيطرة الإنسان على نوازعه الداخلية وأهوائه وشهواته، حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية، بذلك تتم عمارة الأرض، كما أراد الله))[2] .

إذن هناك عاملان مهمان لقيام الحضارة هما : العامل المادي، والعامل المعنوي، يتمثل الجانب الأول في البيئة الجغرافية التي تحيط بالإنسان ،وما تشتمل عليه من مناخ وارض ومياه وموارد اقتصادية في باطن الأرض أو خارجها ، إلا أن هذه العوامل المادية لا قيمة لها بدون إرادة الإنسان المغير والمستفاد من ثروات بيئته وتحديه للصعاب التي تواجهه ، وهناك الكثير من المفكرين قد أكدوا على أهمية العوامل المادية في الحضارة، إلا أنهم لم يجعلوها العامل الأول والوحيد، وبالرغم من أن البيئة تكون أولى مقومات الحضارة في إطارها المادي إلا أنها لا تشبع حاجة الإنسان في السكينة وراحة البال والاستقرار النفسي التي إذ توفرت للإنسان كانت حافزا مهماً لقيام حضارته .من هنا تظهر أهمية العامل المعنوي والروحي من دين وخلق وقيم وعادات وتقاليد حسنة .

1 أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ ط 2 ، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1989 ص 247.
2 محمود حمدي زقزوق، هموم الأمة الإسلامية، ط1، دار الرشاد، القاهرة، 1998 ص 27.

هذا الجانب الروحي هو الذي ((يغذي الحضارة بالنماء والارتقاء، وهو حصيلة القيم والأخلاق والسلوك التي تقود الإنسان والجماعة إلي نهج أثير بين تؤمن به وترعاه وتصونه وتذود عنه لخيرها وصلاحها))[1]. فالعنصران المادي والمعنوي أو الروحي من أهم عوامل قيام الحضارة ، ولكن من حيث الأولوية والترتيب نجد العنصر المعنوي أو الروحي يحتل الصدارة لما يملك من قيم وأخلاق تعد هي الأساس المتين لبقاء الحضارة، فالأمراض الاجتماعية والآفات الأخلاقية إذا انتشرت في حضارة من الحضارات تعجل لا محالة بانهيارها، والتاريخ يسرد لنا الكثير من الحضارات التي تمحورت واهتمت بالجانب المادي على حساب الجانب الروحي والأخلاقي والمثل العليا ، فكان هذا الإهمال للقيم سبباً من أسباب فنائها وانحلالها بالرغم من تفوقها المادي ((فالقوى **المادية - و إن كانت تعد من أسباب التحضر والتقدم**– إلا أنها قد تكون كذلك من عوامل التخلف والشقاء إذا ما أقامت الأمم والشعوب بتحويلها إلى أسباب غرور وتفاخر وتسلط وظلم لمن حولها، وتهميش كل ما وراء ذلك))[2]. إذا فبلاء الحضارات بالانهيار والسقوط ليس سببه قلة أو ضعف إمكانياتها المادية أو منجزاتها العلمية، وإنما بسبب إهمالها للعوامل الروحية والأخلاقية.

يقول **مارتن لوثر:** ((ليست سعادة البلاد بوفرة إيرادها ولا بقوة حصونها، ولا بجمال بنائها، وإنما سعادتها بعدد المهذبين من أبنائها، وبعدد الرجال ذوى التربية والأخلاق فيها))[3]. إذا فالقيم الأخلاقية التي تمثل الجانب المعنوي أو الروحي هي الأساس والجوهر الذي تقوم عليه أي حضارة، وهما اللذان يتضمنان سر بقائها وصمودها ، فالجانب المعنوي بما يشتمل من دين وأخلاق وقيم إذ اختفى أو أهمل فسيتبع ذلك الإهمال زوال الدف المعنوي للإنسان الذي هو روح الحضارة وخالقها ومبدعها ، ونتيجة لذلك زوال الحضارة أو عجزها عن الاستمرار في التحضر، وهذا ما أكد عليه جل المفكرين وفلاسفة الاجتماع . يقول الدكتور **حسين مؤنس** في كتابه **الحضارة**: ((الحضارة هي ثمرة أي مجهود يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته على وجه الأرض مادياً أو معنوياً، والتحسين المعنوي مقدم على التحسين المادي لأن الغاية القصوى للتحسين هي شعور الإنسان بالأمان و الاطمئنان والكفاية، وقيام مجتمعه على التفاهم والتعاون والمحبة، بدلاً من قيامه على التحايل والأنانية والقانون الذي تنفذه قوة غالبة))[4]. فعلى سبيل المثال نجد الحضارة الرومانية قامت على القوة والسيطرة، وبالتالي لم تحقق السعادة لمجتمعها، كذلك الحضارة الفارسية قامت على الاهتمام بالعمران، وتشيد القصور والتفنن في الصناعات ألا أنها فشلت في تحقيق سعادة

[1] حسين فوزي النجار ،الإسلام وفلسفة الحضارة، ب ط ،دار التعاون للطبع والتوزيع، القاهرة، ب ت،ص15.
[2] طه جابر العلواني، مقال بعنوان الانحراف الأخلاقي وأثره في الانحسار الحضاري، مجلة البيان عدد 182.
[3] مقداد بالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، ب ط، عالم الكتب السعودية ،الرياض،سنة2002م،ص812 .
[4] حسين مؤنس، الحضارة، ب ط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،،سنة1978،ص13 .

الإنسان الفارسي، وذلك لانتشار الظلم فيها وبعدها عن الأخلاق، في حين نجد الحضارة الهندية هي الأخرى قد استندت على جانب واحد من جوانب التحضر وهو الجانب الروحي الذي يعتبر من أهم مقوماتها وركائزها فاهتمامها بالروح وإهمالها للجسد وتحقيره وتعذيبه احدث فيها نوعا من الخلل ما جعلها غير متوازنة، وناقصة .

لذا أصبح من الواضح ضرورة توازن الجانب المادي والجانب المعنوي في أي حضارة . ولكن ما يظهر لنا الآن يفسر جهود الإنسانية في بناء الجانب المادي وتتابعه للحضارة حتى أصبح لدينا العديد من الانجازات العلمية والتكنولوجيا والصناعية المتطورة بل الفائقة التطور والبالغة الدقة، ولكن في المقابل وجدت الإنسانية نفسها تبتعد بل وتتخلف تخلفا ذ ريعاً عن الجانب المعنوي، والدليل على ذلك القلق والخوف وعدم الاستقرار النفسي ، وفقدان الطمأنينة و الأمن الناتجة عن الصراعات، والأطماع بين البلدان في ثروات الغير. ففي الحضارات المعاصرة وفي الكثير من بلدان العالم لا نجد إلا السيطرة والهيمنة وتفشي الظلم والاضطهاد، وضياع الحقوق والاستيلاء على أراضي الآخرين وثرواتهم بالقوة المادية والعلمية التي أبدعتها وتفوقت بها الحضارة المعاصرة ، وفي المقابل أهملت هذه الحضارة الجانب الروحي والمعنوي . ما جعل كثيرين من فلاسفة ومفكرين الحضارة يصفون الحضارة المادية أو بالأحرى التي تقوم على الجانب المادي فقط بأنها حضارة مشوهه ناقصة ومصيرها الانهيار والسقوط . و في المقابل نجدهم قد تحدثوا عن حضارات عرفتها الإنسانية كانت في حالة ركود ونهضت من جديد لأنها عند قيامها قامت على الجانبين المادي والمعنوي ولم ُتهمل أي منهما و أن ازديادها في التقدم المادي كان بسبب قيادة الجانب المعنوي لها . وخير مثال يوضح لنا ذلك هو حديثنا التالي عن القيم الأخلاقية كأساس من أهم أسس الحضارة، هو مثال تبيان دور القيم والأخلاق في الحضارة الإسلامية .

-القيم الأخلاقية ودورها في قيام الحضارة الإسلامية:

مما سبق يتضح لنا أن بناء الحضارة لا يقوم على القيم المادية وحدها ولا على الروحية وحدها ،فالحضارة الإسلامية قد امتازت بالجمع بين ما هو مادي وما هو روحي بشكل متوازن تطبيقا لقوله تعالى (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (77) سورة القصص. فحضارة الإسلام تقوم على قيم ثابتة لثبات مصدرها، تلك القيم الثابتة كانت عامل هام من عوامل نهضة العرب والمسلمين، وذلك حينما التزموا، وتماسكوا بها بل كانوا يطبقون أخلاقهم العملية في مجتمعاتهم وفي البلدان التي فتحوها. لان أسس الأخلاق في الإسلام هي أسس ((فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وإيمانية،

كما أن أسس القاعدة الإيمانية في الإسلام هي أسس فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وأخلاقية))[1]. إذا فالأخلاق هي الغاية التي أرادها الله من عباده في عمارة الأرض، وإعداد أنفسهم لله من أجل سعادتهم في الدنيا والآخرة. إن عمارة الأرض وتحقيق الحضارة الإسلامية المنشودة، لم تأتي إلا بسبب تكامل الأخلاق .

يقول الدكتور **محمد ظفر الله خان :** ((إن سياج الحضارة الإسلامية هو الدين والأخلاق، فمبادئ الأخلاق تتداخل في كل نظم الحياة وفي مختلف أوجه نشاطها سواء في السلوك الشخصي أم في السلوك الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي. ومن المحال إقامة النظام الصالح أو المجتمع الفاضل من دون أخلاق وقيم شريفة، وهذه القيم ونحوها هي صمام أمان يكفل دوام الحضارة ويمنع انحرافها و تعثرها بدليل قيام الحضارة الحديثة عليها في مبدأ الأمر وتعرضها للإفلاس والانهيار في شرخ قوتها عندما طغت عليها الصفة المادية))[2]. في حين نجد الحضارة الإسلامية بسبب ارتكازها على البعد القيمي والأخلاقي كانت من ارقي الحضارات لأنها حضارة اشتملت على مختلف جوانب الحياة، المادية والروحية والنفسية والفكرية والجسدية والفردية والاجتماعية، هذا إلى جانب اشتمالها على جميع المجالات العلمية والعملية، وبالتالي حققت الصورة المثالية للحضارة الراقية، في زمن قياسي، وذلك بسبب التزامها بأسس الإسلام وخلقه ومنهجه ، فكان ارتقاء تلك الحضارة أدهش أبناء الحضارات السابقة لها.

إن نظرة تدقيق في الحضارة الإسلامية، تجعلنا نرجع سبب تقدمها ورقيها، إلى تبنيها قيم الإسلام، فهذا الأمر لا يستطيع أحد أن ينكره ، إذ لا يمكن لإنسان أن ينكر ديناميكية الدين الإسلامي وما يشتمل عليه من أخلاق، وتوحيده لمشاعر أفراد المجتمع، ودخولهم في التاريخ بتوجيهه، وتحريره للإنسان من كل رموز السيطرة، وتأسيسه للأخلاق والقيم التي تضمن تقدم المجتمعات، وتحقق حرية الإنسان. ((فالدراسات أوضحت كيف أن الدين يعد أحد الضرورات الاجتماعية، فهو ضرورة تنظيمية، و ضرورة من ضرورات الضبط الاجتماعي، وتنظيم العلاقات الاجتماعية، هذا إلى جانب أنه ضرورة تربوية ونفسية، ترتبط بباطن الإنسان وفطرته وواقعه الداخلي وعواطفه و وجدانياته))[3] .

[1] عبد الرحمن حنبكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج1، ط5،دار القلم،دمشق،سنة1999م،ص25

[2] محمد ظفر الله خان، الإسلام والإنسان المعاصر، ترجمة محمد جلال شرف، ب ط، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ب ت،ص98 .

[3] نبيل محمد توفيق السمالوطي، الدين والبناء الاجتماعي،ط1،ج1، دار الشروق للنشر والتوزيع الطباعة،السعودية،1981م،ص11

- دور الإسلام والمسلمين في قيام الحضارة العربيةالإسلامية:

للإسلام دور هام في قيام الحضارة الإسلامية، وذلك بما فيه من مبادئ تتلخص في العدالة التامة، والتكافل الاجتماعي، والشعور بالمسئولية والإخاء والمساواة، والأمانة، والحرية، والإحسان، والمعاملة الحسنة هذا بجانب دعوته لاستخدام العقل ، و حثه على التأمل في ظواهر الكون الطبيعي و كشف أسراره . فمن يتمعن في تلك المبادئ يجد أنها مبادئ مثالية، بل هي قمة الأخلاق المثالية ، تلك المبادئ كانت من أهم المبادئ التي التزم بها المسلمون الأوائل، وبالتالي كانت من أهم عوامل نهضتهم وبناء حضارتهم حينما امنوا به وعملوا على تحقيقها في المجتمع، وبذلك حققوا مجتمعاً متحضراً. وهنا نجد أن للإسلام والأخلاق الإسلامية دوراً عظيماً يتمثل في رقي الإنسان مما يدفعه إلى تشييد حضارته. فالإنسان المسلم هو الذي عمل منذ البداية على الالتزام بكل قواعد الدين والقيم الأخلاقية التي ساعدته على إنشاء حضارة هي من أعظم حضارات العالم احتراماً للإنسان والقيم الإنسانية، فلو لم تكن إرادة الإنسان المسلم الداخلية وقوة ذكائه واحترامه للقيم التي أتى بها الدين الإسلامي، لما كانت هناك حضارة إسلامية، تعد من أعظم حضارات العصر الوسيط.

فالإسلام وضع أسساً أخلاقية، وطلب من المسلمين أن يعيشوا في الحياة معيشة دنيوية أساسها الفضائل وحسن المعاملة والتعاون على الخير، كما دعا إلى مكارم الأخلاق، كالصدق والعفو عند المقدرة والوفاء بالوعد، وما إلى ذلك من الأخلاق الحميدة، وقد قال صلى الله عليه وسلم : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

- أثر الإسلام في تغير عقلية العرب:

من يتمعن القرآن والسنة النبوية يتضح له مدى اهتمامهما بالأخلاق؛ لأنها قيمة ترتبط بسلوك الإنسان الفاعل المنشئ للحضارة؛ فنجد في القرآن نوعين من الأخلاق: نوع هو تعاليم الآداب واللياقة، كما في الآية ﴿ **وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا** ﴾ **[النساء: آية 86** وكما في الآية ﴿ **لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا** ﴾ **[النور:آية27** ، ونوع آخر هو أسمى ما تدعو إليه الأخلاق، كالوفاء بالوعد والصبر في الشدائد، والعدل مع من أحببت أو كرهت، والعفو عند المقدرة. يقول تعالى: ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ** ﴾ **[البقرة: آية 177** ، ويقول: ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ **[النحل: آية 90** . فهذه التعاليم القرآنية كان لها أثر في عقلية العرب وسلوكهم الاجتماعي، حيث رفعت المستوى العقلي

لهم، وغيرت من قيم الأشياء عندهم، كما غيرت بعض الأخلاق السيئة. وكان أهم أثر لهذه الأخلاق الإسلامية هو محاربة الفوارق المادية بين الناس، ومقاومة الرق والاستعباد فالدين الإسلامي دين اجتماعي يهدف إلى سعادة المجتمع في دنياه وآخرته، وفى آيات القرآن الكريم الكثير من الشرائع الاجتماعية والأخلاقية التي متى التزم بها المسلم كوَّن بها مجتمعاً متحضراً يقوم على أسس سليمة أساسها العقيدة السمحة و دأبها. منها على سبيل المثال حثه على الصدق، ونهيه عن الكذب والتجسس والغيبة وعدم السخرية من الآخرين وإكرام الجار. هذه القيم وغيرها من أعظم القيم التي تبني مجتمعاً متحضراً، فمنها بني الإنسان المسلم نفسه وشخصيته أولاً، ثم بني حضارته ثانياً. كذلك أطلق الإسلام عقول المسلمين من عقالها، وحثهم على أن يتفكروا وينظروا في ملكوت السموات والأرض .

فدعوة الإسلام نقلت مثالية العرب من صعيد الصحراء إلى صعيد البشرية جمعاء، ومن إطار القبيلة إلى إطار الإنسانية، ووحدت بين القبائل في العمل والهدف، وألقت في روح العربي أنه إنسان في هذه الحياة، ينضم إلى الأسرة الإنسانية، ويسهم معها في رفاهية الإنسان وتقدمه، وقد جاء الإسلام بمبادئ اعتنقها المجتمع المسلم منذ نشأته؛ تلك المبادئ هي ثورة اجتماعية هائلة بدلت الأوضاع الاجتماعية الفاسدة التي كانت موجودة لدى المجتمعات الإنسانية، تتمثل تلك المبادئ في المساواة التامة بين البشر. يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: آية **13** ومن هذه السمة التي يحملها المفهوم الإسلامي للمساواة بين البشر تنطلق الرحمة، لذا نجده أحل الأخوة الإسلامية، محل النسب والقبيلة، والولاء للإسلام، محل الولاء للقبيلة، والشريعة الإسلامية العادلة، محل الأعراف القبلية. وهنا نجد قمة القيم الأخلاقية تتحقق لدى الإسلام والمسلمين، حين ينظر الإسلام إلى المجتمع بجميع عناصره وطبقاته، على أنه أسرة واحدة متعاونة تعاوناً وثيقاً في الحياة، يعطف الغني على الفقير، ويحنو الكبير على الصغير، ويدفع كل بالتي هي أحسن، فمن كل تلك الصفات تتضح المبادئ والقيم الإنسانية للمسلم الذي أبلغ في التعبير عن هذا التعاون المطلق والأخوة الكاملة من قوله تعالى: ﴿ **إنما المؤمنون إخوة**﴾ [الحجرات: آية **10** . وقوله تعالى: ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيم**﴾، البقرة آية **263** وتعد هذه الآية الكريمة من أحكم أصول المعاملة في الإسلام، ومنها تدرج الحكام المسلمون الذين لم ينسوا المبدأ الإسلامي العالي ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾،الحجرات آية **13** تدرجوا إلى حسن استغلال مواهب النابغين من أبناء الدولة، بصرف النظر عن ديانتهم ومذاهبهم.

هذه القيم الإسلامية التي هي ((مجموعة الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية، وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل الحي مع المجتمع، وعلى التوافق مع أعضائه وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والعقيدة))[1].هي التي من خلالها استطاع المسلمون أن يقيموا حضارة من أعظم الحضارات التي عرفها التاريخ.

هناك من الأدلة على عظمة تلك القيم الأخلاقية في بناء إحدى أعظم الحضارات التي عرفتها الإنسانية منها على سبيل المثال لا الحصر: ((نهي رسول الله ﷺ خالداً في غزوة حنين عن قتل الأطفال والنساء والأحرار.))[2]. وهذا موقف أخلاقي وإنساني لم يألفه البشر من قبل في أي حضارة من الحضارات السابقة لحضارة الإسلام. كذلك لو نظرنا إلى فرض الجزية على النصارى واليهود والمجوس، نجد أن هذه الجزية لم تكن نوعاً من العقوبة أو الجزاء على الذمي، وإنما كانت أسمى قاعدة لتطبيق نظام المواطنة عليهم في الإسلام، بإقرارهم على دينهم، ودفعها مقابل تعهد المسلمين بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم ودياناتهم وإعفائهم من أداء الخدمة العسكرية، لذا فرضت عليهم الجزية، التي نجد فيها قمة القيم الأخلاقية للقادة المسلمين المتأثرين بما فعله الرسول ﷺ وخلفاؤه من بعده، حين أقروا الجزية على الذكور البالغين وحدهم من أهل الذمة، دون الأطفال والنساء والشيوخ، إلى جانب الشباب، ولو كانت الجزية عقوبة لفرضت على الكل،((فليس في الإسلام ولا في الأخلاق الإسلامية عصبية لجنس أو لون، الجميع بنعمة الله متحابون متآلفون، يسودهم الإخاء والحب والألفة، ووجد اليهود والنصارى كل ما كانوا يبتغون من العدل في ظلاله، ولم يعد هناك فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، ولم يكن المسلمون أبداً متعصبين على أحد ممن خالفوهم في العقيدة))[3]. بل كان الإسلام مليئاً بروح الرفق والسماحة والأخوة، وقد أوصل محمد ﷺ هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية. ((إنهم ساروا بين الأمم على شريعة جامعة، وقانون محكم، لا يعتدون ولا يبغون، ولا ينقضون العهد...إنهم جماعة ونظام... إنهم يسيرون في الأرض ابتغاء مرضاة الله))[4]. وبهذه القيم السمحة ظهرت الحضارة الإسلامية كحضارة مختلفة عن كل الحضارات السابقة لها بتميزها الأخلاقي ، هذا التميز الذي لم يصل إليه العقل البشري من قبل، إنه قبس من نور الله، وتراث من حكمته، فلما كان الإنسان خليفة استخلفه الله على الأرض كان عليه أن يتجه بروحه وقلبه إلى الله وحده لا شريك له، يعبده ويطيعه، ويعمل بشرائعه. هذه كلها مبادئ وقيم إنسانية عملت على ازدهار وقيام الحضارة الإسلامية، كان

[1] جابر قمحية، المدخل إلى القيم الأخلاقية،ط1،دار الكتاب المصري،القاهرة،1984م،ص11.
[2] أبن هشام: سيرة أبن هشام. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. المجلد الثالث.ط3.ج 5 .دار الجبل. بيروت. ب ت.ص127.
3 محمد عبد المنعم خفاجي،،الإسلام والحضارة الإنسانية،،ط1،دار الكتاب اللبناني،بيروت،،191973م،ص251.
[4] عبد الوهاب عزام: سر الفوز العظيم في الفتح الإسلامي، مجلة الأزهر، المجلد 24، القاهرة، 1952، ص8.

الدين هو الأساس في إيجاد مبادئها، وكان للإنسان الدور الفعال في احترامها والالتزام بها ، و هو أمر يؤكد لنا أن العامل الأخلاقي له دور مهم في قيام الحضارة، بما يملكه الإنسان من قيم مثالية، تنطق عن مثاليات الحياة ومبادئها وسلوكها وأخلاقها .

تلك هي الأخلاق التي كانت سائدة في المجتمع المسلم والنابعة من أخلاقيات المسلمين إن أثر الأخلاق على المجتمع أقوى من أي أثر بما في ذلك ((أثر القانون، لأنها ليست مرتبطة بنظام بالذات، أو بحكومة بالذات، وإنما هي شيء ارتضاه الناس لأنفسهم، وبنوه على مر العصور حتى أصبح جزءاً من حياتهم. إن الأخلاق قوة إيجابية في المجتمع، وهي التي تخط للأفراد سبل التعامل بين الناس. ولا شيء أفضل من الأخلاق في بناء الأفراد، وفي بناء المجتمعات))[1] . هذا الأمر يعيدنا إلى التأكيد على أن كل ما دعا به الإسلام له قيم إنسانية عظيمة، أثرت في الإنسان، وهذبت من روحه وأخلاقه، فقد دعا العقل البشري إلى حب المعرفة، وغذى ضمير الإنسان بحب الخير والرحمة والبر والسعادة والرفاهية لبني جنسه عامة، ووجَّهه إلى ما فيه تقدم الإنسانية جمعاء.

فمن هذه القيم الأخلاقية، ومن اعتقاد المسلم أن الدنيا دار عمل ومن أضاع عمله أضاع ثروته وأنقص رصيده، وأن الآخرة دار جزاء على هذا العمل، جعل علاقته بالحياة علاقة طريق بغاية ،فكلما استقام الطريق وضحت الغاية. ومن هذا المنطلق استطاع الإنسان المسلم أن يبني أقوى وأعظم حضارة فقد كان المسلمون في عز سطوتهم وعنفوان عزهم عبيداً لله، وحملة للقيم ومشاعل النور ، وحراساً للحق، وهذه كلها قيم إنسانية لا توجد إلا لدى الإنسان المسلم الذي طوعها ، فكانت من أهم المؤثرات في إبداع حضارته.

إذا فالفعل الأخلاقي للإنسان المسلم في قيام الحضارة الإسلامية واضح وعظيم، يتمثل في أخلاقه النبيلة، وفي حمله مشعل النور، ومصابيح الحضارة، مما جعله يشيد للإنسانية صروحاً عالية، ينشر فيها دعوة الحق، والعلم، والحكمة، والمعرفة، والثقافة الشاملة، والمدنية المهذبة .

<u>سبب تدهور حضارة الإسلام هو البعد عن قيم الإسلام:</u>

من العرض السابق اتضح لنا أن الحضارة العربية الإسلامية نشأت من الالتزام بالقيم الأخلاقية، إلا انه حينما تخلى المسلمون عن مبادئهم الأخلاقية انحطت حضارتهم، وتوقفت عن الإبداع ،

[1] محمد أحمد خلف الله: هكذا يبنى الإنسان، ب ط، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970، ص185.

بل أصبح لديهم الكثير من المشاكل المستعصية التي تلاحقهم منها الاجتماعية، والسياسية، و الاقتصادية، وهي مشاكل تفاقمت وتنوعت، وتفشت، حتى لم تترك قطاعاً من قطاعات المجتمع إلا و اجتاحته . هذا يعني أن على المسلمين أن يعو أنهم في((مواجهة خطر قادم، رهيب، لا يقاوم إلا بالوحدة القائمة على أساس المنهاج الأخلاقي))[1] . فالأمم ترتقي وتعلوا في ركب الحضارة حينما يملك شعبها خلقاً حسناً، وتنهار حينما تبتعد عن قيمها الأخلاقية ،وقد عبر عن قيمة الأخلاق وأهميتها في الرقي والانحلال الحضاري الكثير من الفلاسفة والمفكرين ،منهم على سبيل المثال المفكر الجزائري الذي كان جل اهتمامه البحث في أسباب تخلف العالم العربي والإسلامي عن ركب التحضر، والبحث عن سبل الوصول لإحياء نهضته و حضارته من جديد. هذا المفكر هو: **مالك بن نبي** * الذي أعطى للحضارة أولى اهتماماته لذا نجده قد تناول التراجع الحضاري للأمة العربية الإسلامية في كل كتبه تحت عنوان مشكلات الحضارة، والتي حاول فيها أن يجيب عن السؤال التالي : ما سبب تراجع الأمة العربية الإسلامية وما الشروط الواجب توافرها للتحضر وكيفية الوصول إليها؟ . فنراه يؤكد على أن الانحطاط في العالم الإسلامي سببه لا يعود إلى الاستعمار، بل إلى القابلية للاستعمار، لذا نجدة قد اهتم بإظهار الدور الفعال للإنسان من خلال ما يحمله من القيم الدينية، و الأخلاقية، والتي هي أساس الحضارة، فقد طرح هذا المفكرً المشكلة التي واجهت المجتمع الإسلامي منذ سقوط **دولة الموحدين** * **عام667ه /1269** و التي بها تم أفول الحضارة الإسلامية، وذلك بسبب الهزيمة التي مني بها، والتي عملت على فقدان همته وأصابته بالجمود، فأصبح عاجزاً عن الإبداع وإظهار مواهبه الخاصة، وهكذا فقد المجتمع الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين اهتمامه بالعلم و دوره الاجتماعي، وساد الجمود الفكري، ولم يبقَ لدى مجتمع ما بعد الموحدين سوى

---

[1] محمد عبدا لله دراز، دستور الأخلاق في القرآن ، ترجمة عبد الصبور شاهين ،ط10، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998م،ص(ل ه).

* مفكر جزائري يتخذ من التغير وسيلة إلى الحضارة. ولد في قسنطينة بالجزائر سنة 1905م، وتلقى العلم منذ الصغر في مدن مختلفة من الجزائر، حتى وصل به المطاف إلى أن سافر إلى فرنسا عام 1930. وبعد وصوله قام بتسجيل اسمه في معهد الدراسات الشرقية، إلا أنه لم يوفق في هذا المعهد، فالتحق بمدرسة اللاسلكي لدراسة هندسة الكهرباء في باريس، فأتم دراسته في كلية الهندسة وتخرج مهندساً كهربائياً، ومنذ ذلك الوقت كان يدعو للإصلاح، ولكل شعار عربي، حيث عمل من أجل الإصلاح في وسط الجزائريين والعرب والمسلمين عموماً، لذلك حاربه الاستعمار، فعاد إلى الجزائر حتى بدأت الحرب العالمية الثانية، فعاد إلى فرنسا، وبقي فيها حتى مجيئه=إلى القاهرة حوالي 1956م، واتصاله بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر. وفي القاهرة خصصت له الحكومة المصرية مرتباً شهرياً، مما ساعده على التفرغ للعمل الفكري. وبقي في مصر حتى عام 1963م. بعد استقلال الجزائر رجع إلى بلده، وعمل مديراً للتعليم العالي، لكنه استقال من منصبه سنة 1967م، ليتفرغ للعمل الفكري والإصلاح، فكانت معظم مؤلفاته من أجل تأصيل فكرة الحضارة، وكان المحور الذي تدور حوله فلسفة مالك بن نبي هو مشكلة الحضارة في العالم الإسلامي، فوضع كتبه جميعاً تحت عنوان مشكلات الحضارة، وهي تسعة عشر مؤلفاً، بالإضافة إلى الندوات والمحاضرات والتعليقات على بعض المؤلفات القديمة. استمرت حياته في الإبداع الفكري والدعوة إلى الإصلاح حتى توفي في 1973/10/31م، بعد حياة حافلة بالدراسة والتأمل والكفاح والدعوة إلى النهضة. انظر: أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، ط2، دار النفائس، بيروت، 1986، ص14.

* ظهرت دولة الموحدين بعد سنة 1147، وكان مبدأ دعوتهم أن أحد الفقهاء المثقفين وهو محمد بن تومرت المهدي (ت524هـ/1130م) مصلح ديني من مراكش رأى الجهالة التي حلت بقومه، وفساد الوضع الاجتماعي والديني فأخذ بحركة تهدف إلى إحياء الدين، و القضاء على البدع والضلالات، وتعمل على بث التوحيد، فكون لنفسه أتباعاً سماهم الموحدين، حمل على دولة المرابطين، ووضع الأساس لدولة الموحدين التي أقامها تلميذه عبد المؤمن بن علي (559هـ/1163م) الذي ساعد محمد بن تومرت في حملته على المرابطين، فقاد جماعة الموحدين لنشر دعوتهم وخلف ابن تومرت في الحكم (1120). إلا أن دولة الموحدين انحلت، وقام مقامها دويلات صغيرة ضعيفة تناحرت تناحراً أطمع دول الاستعمار الغربي فيها حتى تم سقوطها (1269م). وهو في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها. انظر محمد سعد طلس، تاريخ العرب، ط2، دار الأندلس ، المجلد الأول، ج4 بيروت، ب ت، ص259 .

امتداد الماضي، وفقدان الإبداع، ((فحين اتجهت الثقافة إلى امتداد الماضي، أصبحت ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام، بل ينتكس إلى وراء. وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سبباً في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي، أنما قد أصبحت متنفساً له))[1] . ومن ثم اتجه العالم الإسلامي إلى الغرب، يستورد منه منتجاته وأفكاره، وأصبح العالم العربي الإسلامي في ركود وتبعية للاستعمار. فمن واقع الإنسان العربي والمسلم يطرح **مالك بن نبي** كمفكر إسلامي تحليله لأسباب تدهور الحضارة العربية الإسلامية في العصر الحديث فيقول: ((إذا كانت مشكلة كل شعب في جوهرها هي مشكلة حضارية، فلا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يرتفع بفكره **إلي مستوى** الأهداف الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها))[2].

منذ البدء حدد هذا المفكر مفهوم الحضارة بأنها هي ((مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة ،المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه))[3].
إذن ((في الحضارة جانبين:

الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية في صورة إمكان أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته، أي الوظيفة الحضارية))[4] . لذلك نجده قد حدد الدور المناط من الإنسان العربي والمسلم للقيام بحضارته فأرجع عوامل قيامها في معادلة مكونة من ثلاثة عناصر مترابطة ومتماسكة، كل منها له دور مهم، ولا يقوم أحد الأطراف إلا من خلال الطرفين الآخرين، وأهم طرف محرك للأطراف الأخرى هو الإنسان، لذا نجده يقول: **حضارة = إنسان + تراب + وقت، و** يقول: ((إن مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة، لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها))[5]. فلو تمعنا في تلك العناصر الثلاثة المكونة لحدود معادلة الحضارة، نجدها كلها تقوم على مدى التزام الإنسان بما يحمل من عقيدة وقيم روحية ومعنوية هي السبب في تحضره، وهي التي تحفزه دائماً على الاستمرار في الإبداع، مستخدماً كل ما لديه من

1 مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط1، مطبعة المدني، القاهرة،1959ص62.
2 مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة، عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، ب ط، دار الفكر،دمشق،1979،ص17.
3 مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ب ط، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ب ت، ص17.
4 مالك بن نبي: المسلم في علم الاقتصاد، ب ط، دار الفكر، دمشق، 1979 ، ص63.
5 مالك بن نبي: شروط النهضة، ص45.

طاقة مبدعة، وذلك بمساعدة التراب، أو بالأحرى الثروات الطبيعية والمواد الخام التي لديه، والتي هي من ضرورات الحياة والطاقات.

كذلك لا ينسى مالك بن نبي دور الوقت وكيفية استثماره في تحقيق بناء الحضارات، فعن طريق هذه الحدود الثلاثة لمعادلة الحضارة، و بها مجتمعة، تحل مشكلة التحضر. فتأكيده على أن الحضارة هي نتاج حركة بناء المجتمع تتوازن فيها الروح والمادة، من خلال مجهود المجتمع ذاته، وليس تكديس أو استيراد أشياء الأمم الأخرى، أو استعادة فكرها ومنتجاتها، لأن في هذا الفهم للحضارة **(أي تكديس واستيراد المنتجات والأفكار من المستعمر)** بذرة موت الطموح الحضاري للشعوب حيث تصبح الشعوب تابعة للمستعمر، وغير قادرة على الإبداع والتصنيع، وبالتالي تصاب الأفكار بالجمود

لذا ذكر مالك بن نبي مساوئ الاستيراد وجمود الأفكار ما هو إلا تأكيد على دور الإنسان. حيث نجده يؤكد ذلك في أكثر من موضع في معظم مؤلفاته التي تتناول مشكلات الحضارة، فيقول في كتابه **تأملات**: ((مشكلة الحضارة لا تحل باستيراد منتجات حضارية موجودة، ولكنها تستوجب حل ثلاث **مشكلات جزئية هي :**

1-مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ .

2-مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية .

3- مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد))[1] .

بهذه الشروط الثلاثة تتكون الحضارة، ومنها يستطيع الإنسان في البلدان النامية، ومنها العالم العربي والإسلامي أن يبدع ويغتنم فرص الحياة من أجل العطاء. وهذه العناصر الثلاثة للحضارة لا تكون منفردة، وإن كان الجامع المشترك لها الأخلاق النابعة من العقيدة الإسلامية. فهو يؤكد على أن السمة العامة للحضارة القائمة على العناصر الثلاثة تنبع من قواعد الأخلاق التي تضع في الأولوية كرامة الإنسان وحقه في العيش الكريم، فهذه العناصر الثلاثة الأساسية **((**لابد من أن يركبها العامل الأخلاقي، أعني يحتم تماسكها. وبدون هذا العامل توشك أن تتمخض

[1] مالك بن نبي: تأملات، ب ط، دار الفكر، دمشق، 1978، ص199.

العمليـة عـن **(كومـة)** لا شـكل لهـا، متقلبـة عـاجزة عـن أن تأخـذ أي اتجـاه أو تحـتفظ بـه ، أو أن تكون لها وجهة، بدلاً من أن تكون **(كلا)** محدداً في مبناه، وفيما يهدف إليه))[1] .

فلا دوام للحضارة ولا بقاء للمجتمعات بغير الأخلاق، واليوم الذي تختل فيه موازين الأخلاق، وتتقلب الأوضاع، وتضعف القيم والمبادئ والمثل فإن هذا إشارة إلى بداية السقوط والانهيار , و كما يحدثنا التاريخ بذلك فالإنسان هو أول الحضارة وآخرها، إذا التزم بالعقيدة الدينية والأخلاق الإسلامية، وأنطلق لتغيير مجتمعه، وفقاً للمبدأ القرآني **{إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} [سورة الرعد، آية11]** ، على أساس أن تغيير الإنسان لما بنفسه ضروري لتغيير الأشياء، ولتوجيه العالم المحيط بنا، وللتفاعل مع الوجهة المنسجمة مع ما نرتضيه من القيم العليا الأساسية لحياتنا، ولما نعتبره منها قواماً لحضارتنا، ولما نستنير به من أنوارها لنهتدي به في مسيرتنا نحو مستقبل أفضل. فالحضارة عملية بناء صعبة تتطلب أساساً فكرياً معيناً، وجهوداً مبذولة يبذلها الأشخاص، أو بالأحرى الإنسان الذي يرى فيه مالك بن نبي أن عليه أن يتلقى برنامجاً تربوياً يهدف لتغيير الإنسان من الداخل، حتى يتمكن من أداء وظيفته الاجتماعية، ويحقق بناء مجتمعه.

إذا سوء فهم الإسلام من قبل المسلمين، أو بالأحرى سوء نقله من الجانب العقدي الروحي إلى الجانب التطبيقي الاجتماعي هو سبب تخلفنا، فمشكلة التقدم ليس العائق فيها الإسلام كما يظن بعض المغرضين أو كما يشيعون، فالإسلام دين شامل للحاضر و المستقبل متمشيا مع سنة التطور، فهو الطاقة الباعثة من الثورة إلى التحرر، من خلال ما زرعه في معتنقيه من قيم وقواعد للسلوك لمختلف نواحي حياة الفرد و الجماعة . و هو الذي أقام توازنا بين جانبي الروح والمادة في ذات الإنسان، فالكثير من القواعد التي شرعها تحدد بدقة مسؤولية الفرد تجاه الجماعة والعكس، فأرسى بذلك أساسا لنظام اجتماعي متكامل لم تعرفه غيره من الشرائع والنظريات والفلسفات التي حاولت حل مشكلة عدم التوازن بين المادة والروح .

أسباب تخلف المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة عن ركب الحضارة:

حدد **مالك بن نبي** تخلف المجتمع العربي الإسلامي المعاصر في عدة أسباب منها عدم الاستفادة من الطاقة الروحية الإيمانية في منطق العمل والحركة المنتجة، فرأى أن منطق الفكرة موجود في ذات المسلم، لكن انعكاس هذا المنطق الفكري إلى الميدان العملي غير موجود. فنحن نرى في حياتنا اليومية الكثير من أولئك الذين يتقاعسون عن القيام بواجبهم في عملهم،

[1] مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، ب ط، دار الفكر، دمشق، 1979م، ص134.

فلو كان في كل مؤسسة، أو بالأحرى في كل مكان للعمل، من يقوم بواجبه على أكمل وجه، لما كنا من الدول النامية، بل العكس، فا لمعلم – **على سبيل المثال** - عندما يكون عديم الضمير سوف يكون له أثر سيئ على التلاميذ، ومن ثم سوف يكون هناك جيل مهزوم، يرفض القيم، ولا يقيم لها وزناً، وذلك لأن معلمه الذي يلقنه تلك الأشياء يفقدها. لذلك يقول مالك : ((قد يقال إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقاً لمبادئ القرآن، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول إنه يتكلم تبعاً لمبادئ القرآن، لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي...إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكر، ولكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاماً مجرداً، بل إنه أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً، ويقولون كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط))[1]. وهنا في تقديري تظهر موضوعية **مالك بن نبي** في الصورة التي أعطاها لمن ينقصهم منطق العمل، لأن منطق الفكرة موجود في الإسلام، لكن التطبيق العملي هو الذي ينقصنا، و السبب هو وجود هذا النوع من السلوك الناقص و ليس الإسلام، فالإسلام لا يقبل الإنسان غير الفعال، كما أن هذا النوع السلبي من البشر يحاسب على مثل هذا الفعل، لأن المطلوب من المسلم شرعا هو العمل والسعي، واقتران القول بالعمل ، ولكن بسبب الفهم الخاطئ للإسلام أراد الكثيرون أن يحيلوه إلى طقس عبادة و لا دخل له في الشأن الاجتماعي . وهنا تكمن المشكلة، لأن ما جاء به وحي السماء هو من أجل الإنسان المستخلف في الأرض . هذا يعني أن حل مشكلة المنطق العملي لا تكون إلا عن طريق التزام الإنسان بالإسلام المتحرك في الأفراد والجماعات منهجاً وتوجهاً وسلوكاً، و هذا يعني حاجتنا إلى الحركة في العمل، مع الالتزام بقواعد الدين والأخلاق. ولهذا ، اعتبر رواد الإصلاح أن العامل الأخلاقي أساسا لقيام الحضارة الإسلامية ونهضتها ، و بها – **الأخلاق**- نستطيع نحن أبناء الأمة العربية الإسلامية اليوم أن ننقذ مجتمعاتنا من مظاهر الانحلال والفساد والفقر، ونبذ العنف المنتشر بين أبنائنا الآن، وذلك من خلال توجيههم الوجهة الصحيحة ، مستندين في ذلك إلى وجود قدوه يقتاد بها الشباب في السلوك والتصرفات، فالقدوة يجب أن لا تكون في مختلس للمال العام أو الخاص، بل يجب أن تكون في الصادق في أقواله و أفعالة ،الرحيم المحب للضعفاء قبل الأقوياء، الملتزم بمبادئ دينه قولاً وعملاً فالدين سلوك وليس مظهرا ، فحينما كان الدين ((على حقيقته، كان من مزاياه الكبرى أنه قيم أخلاقية مطبقة في عالم الواقع في صورة سلوك واقعي، وكانت هذه- **في حس الأجيال الأولى**- هي الترجمة لحقيقية **"لا اله إلا الله"** ..أي أنها كانت مرتبطة في حسهم بالعقيدة. أو بعبارة أخرى كان في حسهم أن من يعتقد هذه العقيدة ينبغي أن يكون سلوكه ملتزما بتلك القيم الأخلاقية، فالدين معاملة كما علمهم رسولهم

[1] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين،ط1،مطبعة دار الجهاد،القاهرة،1959م ص74.

صلى الله عليه وسلم...وهذا الارتباط بين العقيدة ومقتضياتها الأخلاقية هو القيمة الحضارية الجوهرية في هذا الدين، التي تجعل المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر، مهما يكن نصيبه ضئيلاً من العمارة المادية للأرض، وتجعل العقيدة في هذا الدين هي جوهر الحضارة، بما يشع منها ويرتبط بها من قيم وأخلاق)) [1].

تلك القيم هي التي التزم بها الجيل الأول من المسلمين فكان جيل متميز ومنفرد أعلى جيل حضاري في تاريخ البشرية، على الرغم من البساطة في الأشكال المادية والتنظيمية، وذلك لأنه كان يمارس- **في عالم الواقع**- أعلى قيم إنسانية وأخلاقية، ثم جاء التطور المادي تباعاً واستمر العرب والمسلمون ينفتحون على حضارة الأمم الأخرى، فكانوا شارحين ومحللين ومضيفين ومبدعين للكثير من العلوم والنظريات التي أصبحت فيما بعد قواعد هامة نقلت حضارة أوروبا في العصور الوسطي من الجهل والظلام إلي النهوض بركب الحضارة.

إن ما طرأ على مفهوم **"العبادة"** عند أبناء مجتمعنا المعاصر هو حصرهم - **العبادة**- في الشعائر التعبدية فحسب، بينما ظل سلوكهم العملي بعيدا عن أخلاق الدين الإسلامي .

هنا أصبح المسلم لا يجد حرجاً في الكذب، والغش، وخيانة الأمانة، والاستهتار بالعمل، هذا إلى جانب مخالفة للوعود، وحقده على أخيه متمنيا زوال نعمته، هذا إلي جانب النفاق والبخل والغيبة، وغياب أواصر المحبة ،والترابط، و التكافل الاجتماعي، الأمر الذي أصبح المسلم فيه يرضى لنفسه أن يبات شبعانا ،وجاره جوعان لا يملك قوت يومه، و هكذا فقد المسلم ((جوهره الحضاري الإسلامي ، لأنه تجرد من أخلاقيات **"لا اله إلا الله"** وتجرد من قيمها الإنسانية العليا التي هي جوهر الحضارة وعماد المجتمع المتحضر))[2].

[1] محمد قطب، واقعنا المعاصر، مرجع سبق ذكره ، ص165.
[2] المرجع السابق ،ص165.

الخاتمة:

نخلص إلى القول إن الحضارة تشكل قدراً مهماً مما أنجزه الإنسان على مر العصور المختلفة من تراث سواء أكان روحياً ، أم مادياً، أم فكرياً، أم صناعياً، كما أنها تعبير عن منظومة العقائد والقيم والمبادئ، وجماع النشاط البشري في شتى حقول الفكر والعلوم والآداب والفنون جميعاً ، أنها نظام اجتماعي مؤلف من عدة عناصر، في مقدمتها الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والعلوم والفنون والتقاليد الخلقية. وهذا كله لا يعني أن الحضارة هي مجرد التطور المادي للبشرية، فمما لا شك فيه هو أن العوامل الطبيعية، من جيولوجية وجغرافية وسياسية وعسكرية، تؤثر بشكل بارز في تكوين الحضارات أو في انعدامها. ومع ذلك أجد أن الحضارة تحتاج إلى عوامل أخرى لوجودها، كالمفاهيم الدينية والأخلاقية، تلك المفاهيم التي كان لها الدور الرئيس والأهم في قيام الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط ، فهي عوامل ضرورية في مختلف المجتمعات، إذ لا يمكن بناء أي مجتمع إنساني بغير مفاهيم أخلاقية، تسمو بالفرد إلى مستوى الإنسانية . من هذا نصل إلى مدى أهمية القيم الأخلاقية ودورها العظيم في بناء الحضارات، فقد أوصانا الأنبياء والفلاسفة والمفكرون والعلماء ألا نسقط القيم من أمور تربيتنا وتنميتنا، فحينما تمادينا في إغفالها أصبح حالنا على ما هو عليه الآن من انفصال بين التقدم الاقتصادي وبين غايات الإنسان الأساسية، انفصال بين التعليم والتربية، انفصال بين القانون والعدل، وانفصال بين الموهبة والشهرة. تلك هي أهمية الربط بين مفهومي الحضارة والأخلاق.

لقد كان للإنسان المسلم الريادة في تحقيق عناصر الرقى الحضاري من خلال تحليه بالإيمان والعمل الصالح ، حيث كان الرقى أو الحضارة أو التقدم الحقيقي يبرز من خلال تمسكه بتلك المعاني والقيم الحميدة قولا و عملا .

النتائج:

- للأسف أن حياة المسلمين المعاصرة لا تنبئ ببعث حضارة إسلامية بديلة لأن حياتهم بعيدة عن جوهر الإسلام، لأنها ليست مستوحاة من الإسلام في أكثر من خطوطها الكبرى. فالجهد المطلوب هو اختراق الحياة شبه الإسلامية بمفردات إسلامية حقيقية .

- إن المسلم المعاصر لا يؤمن بالإسلام كما كان يؤمن به المسلمون البناة، وإنما يؤمن به إيماناً خالياً من الحياة والحماس الذي يحول مبادئه إلى طاقة شعورية تتوق إلى التعبير عن نفسها في صنع التاريخ. ومن ثم فإن الشرط الأساسي لانبعاث نهضة لحضارتنا العربية والإسلامية من جديد هو أن يكون لنا وجود فكري ، وكيان روحي مستوحى من المبدأ الصالح الذي يحدد لها أهدافها وغاياتها ، ويضع لها مثلها العليا ويرسم اتجاهها في الحياة.

- عليه ، فأن أبناء العالم العربي والإسلامي لا يستطيعون أن يرقوا بمجتمعهم إلا إذا حددوا أهدافهم. وأهم هدف هو الوعي بالقيم الأخلاقية الإسلامية واللحاق بأسس العلم الحديث . فحينما نعي ما يدور من حولنا نستطيع أن نضع نقاطاً محددة لمشاكلنا.

وهذا يعني أن قدرة أية أمة على أن تعود لممارسة تجربة حضارية جديدة يكمن في تحقيق الشروط اللازمة لذلك، وأولها عملية **التغيير الداخلي .**

- للأسف أن العالم العربي والإسلامي يعيش مأساة، ليست نتيجة العدو الخارجي، لأن المأساة الخارجية ترتسم في أصلها الداخلي، فنحن نلهث وراء الحضارة طمعاً في امتلاكها، وهي لا تزيد على أن تكون كالأفق، كلما ظننا أننا بالغوه عما قريب، ابتعدنا بمقدار ما نحسب أننا اقتربنا منه. وأكثر من ذلك أننا حيارى في داخل أنفسنا، لا نعرف أي نظام نتبع، وأية عقيدة هي المنقذة، وأصبحنا نستورد حتى الإيديولوجيات، ونظن تارة أن ما صلح للغرب يصلح لنا.

إننا نعيش مأساة حقيقية تكمن في أننا الشعب المتخلف الوحيد في العالم الذي يملك أدوات التقدم في العقول والموارد معاً و لم نتمكن من استغلالها ، هذا بجانب مأساة أخرى يبدو أنه عزيز علينا أن نفارقها تكمن في التمزق بدلاً من الوحدة، والتطاحن بدلاً من التضامن، وهذا الذي يسمونه **(الأنظمة العربية) .**

المصادر والمراجع :

اولاً المصادر والمراجع العربية:

1-- ابن هشام: سيرة ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مج3، ج5، ط3، ، دار الجيل، بيروت ب ت .

2- أبو حامد الغزالي محمد بن محمد الطوسي ،إحياء علوم الدين، ج3 ،الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، سنة 1967م .

3- أحمد شلبي: الحضارة الإسلامية، ط1، دار النهضة العربية القاهرة، ب ت.

4- أحمد محمد صبحي: صفاء عبد السلام جعفر: في فلسفة الحضارة، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، 1999م.

5- أحمد محمد صبحي في فلسفة التاريخ، ط2، منشورات جامعة قاريونس بنغازي، 1989.

6- جابر قميحة: المدخل إلى القيم الإسلامية، ط1، دار الكتاب المصري القاهرة، 1984.

7- حسين مؤنس: الحضارة، ب ط، المجلس الوطني للثقافة والآداب والعلوم الكويت،، 1978م.

8 - حسين فوزي النجار ،الإسلام وفلسفة الحضارة، ب ط ،دار التعاون للطبع والتوزيع، القاهرة، ب ت،ص15.

9- عبدا لوهاب جعفر، مذكرة في فلسفة الأخلاق، بدون طبعة الناشر، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، سنة1991.

10-عبدالرحمن حنبكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج1، ط5، دار القلم،دمشق،سنة1999م.

11- عفت الشرقاوي: فلسفة الحضارة الإسلامية، ط4، دار النهضة العربية، بيروت 198 15-

12-قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1977

13-مالك بن نبي ،مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين،ط1،مطبعة دار الجهاد،القاهرة،1959م.

14- مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، ب ط، دار الفكر، دمشق، 1979م .

15- مالك بن نبي: تأملات، ب ط، دار الفكر، دمشق، 1978.

16- مالك بن نبي: المسلم في علم الاقتصاد، ب ط، دار الفكر، دمشق، 1979 .

17- مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ب ط، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ب ت .

18--مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة، عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، ب ط، دار الفكر،دمشق،1979 .

19- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط1، مطبعة المدني، القاهرة .

20- مرتضى مطهري، فلسفة الأخلاق، ترجمة حسن علي الهاشمي،ط1،دار الولاء للطباعة والنشر،2009 .

21- - محمد ظفر الله خان، الإسلام والإنسان المعاصر، ترجمة محمد جلال شرف، ب ط، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ب ت .

22-محمد قطب، واقعنا المعاصر، ط 1، دار الشروق، القاهرة 1997 .

23- محمد عبد المنعم خفاجي،،الإسلام والحضارة الإنسانية،،ط1،دار الكتاب اللبناني، بيروت،، 1973م .

24-محمد عبد الله دراز، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية ،ط2،دار القلم،الكويت،سنة1974م .

25-محمد أحمد خلف الله: هكذا يبنى الإنسان، ب ط، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970 .

26-محمود حمدي زقزوق، هموم الأمة الإسلامية، ط1، دار الرشاد، القاهرة، 1998 .

27-مقداد بالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، ب ط، عالم الكتب السعودية ،الرياض،سنة2002م

28-نبيل محمد توفيق السمالوطي، الدين والبناء الاجتماعي،ط1،ج1، دار الشروق للنشر والتوزيع الطباعة،السعودية،1981م .

ثانياً المصادر الاجنبية المترجمة:

1- ألبرت شفايتسر: فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ب ط، القاهرة، مطبعة مصر، القاهرة ب ت.

2- جوستاف لوبون: روح الجماعة، ترجمة: عادل زعيتر، ب ط، دار المعرفة، مصر، ب ت.

3-ول ديورانت: قصة الحضارة، تعريب: زكي نجيب محمود، ط1، ج1، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة .

ثالثاً معاجم وموسوعات اجنبية:

1-– Le Petit Robert (2) , Dictionnaire Universel Des Noms Propres, Paris, 1985.

2-André Lalande: Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie, P.U.F., Paris, 1968

3-New Junior Encyclopedia, London, 1973, v.4